

كتاب : "حرب لبنان" للدكتور عبد الرؤوف سنو مرجع شامل /كلود أبو شقرا

في كتابه "حرب لبنان" (مجلدين) الصادر حديثاً، تناول الدكتور عبد الرؤوف سنو المحطات الأساسية في تاريخ لبنان الحديث التي أوصلته إلى الحرب في العام 1975 والعوامل والمسببات التي دفعت بأبناء الوطن الواحد إلى التقاتل. كذلك عالج المتغيرات التي أصابت الكيان اللبناني، الذي تأسس على مبدأ التعددية الطائفية، نتيجة الحرب، انطلاقاً من المواطن نفسه، مروراً بالنظام السياسي، العلاقات بين الطوائف، سيادة الدولة على مجتمعها وعلى قرارها.

درس هذا الكتاب بمجديه حالة المجتمع اللبناني زمن الحرب انطلاقاً من عوامل التفجير في الأزمة اللبنانية عشية عام 1975، لا سيما العوامل الخارجية التي ساهمت في انقسام اللبنانيين إلى فرقاء منحازين إلى الخارج أو مسيرين من قبله وخاضعين له، بالإضافة إلى تراكمات الماضي وتداعيات الحاضر: الوجود الفلسطيني، حرب السننتين، التدخل السوري، انقسام الجيش اللبناني، الصراعات الإقليمية والدولية على أرضه... كل هذه العوامل ساهمت في انهيار منظومة العيش المشترك وديمقراطية لبنان التوافقية في وجه التحديات الداخلية والخارجية ما أدى إلى الفرز الطائفي وحركات التهجير والتفوق الطائفي والمناطقية والتعددية الثقافية وقيام معادلة "الأنا والآخر" وانشطار السوق الداخلية واللامركزية الاقتصادية والتدهور الاقتصادي... وصولاً إلى اتفاق الطائف وتعذر دخول لبنان فيه ودور الجنرال ميشال عون في ذلك وكيف تمكنت الدول العربية والقوى الدولية من فرضه .

طرح الدكتور عبد الرؤوف سنو في كتابه إشكالية اللامركزية الاقتصادية والإدارية والإعلامية والانقسام المناطقي ما أدى إلى فقد بيروت دورها الاقتصادي والخدماتي، وتوقف عند دور البورجوازية المليشياوية في تشكيل بطاقة مرور السلع عبر المعابر والمنافذ، انقسام الإعلام اللبناني والوظائف الطائفية والإيديولوجية التي أداها. من جهة أخرى بيّن كيف انعكست الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية على الفئات الاجتماعية الفقيرة والمتوسطة، بعدما كان لبنان يتغنى بمعجزته الاقتصادية وبأنه واحة النظام الحرّ في الشرق الأوسط، وعلى علاقات المواطنين بعضهم بعضاً وأثار التضخم والإنهيارين المالي والنقدي على أوضاعهم المعيشية والتكيف الاجتماعي والاقتصادي والأمني.

كذلك توقف الدكتور عبد الرؤوف سنو عند تأثير الأحداث في الأسرة اللبنانية وفي ثقافتها وسلوكياتها وقيمها والصعوبات الاجتماعية والاقتصادية التي اعترضتها وطرق مواجهتها ودور المليشيات في تمرير سلوكيات وقيم ومفاهيم إلى المجتمع بالتالي إفساد الحياة العامة. في المقابل، حلل مدى ارتباط التهجير والهجرة بالعوامل النفسية من الخوف والتخويف وتدهور الوضع الاقتصادي واعتباره ضرورة من أجل إقامة الكانتونات الطائفية وتعزيز اقتصاد الحرب ومدى حفاظ المهاجرين على علاقتهم بالوطن وحمله معهم إلى بلدان الإغتراب بتناقضاته الطائفية والحزبية .

في نطاق تأثير الحرب على الأوضاع الاجتماعية تناول د. سنو انهيار التعليم نتيجة غياب الدولة والبناء التربوي الطائفي والمناطقي ما أدى إلى انهيار مؤسسات التعليم في القطاع الخاص والأضرار الناتجة عن تفرغ مؤسسات التعليم العالي والقضاء على دورها في التنمية البشرية، تربية وفكراً وثقافة ومعرفة. وعالج

أخيراً الحراك العمودي للقوى الحزبية والمليشياوية في سلم الهرم الاجتماعي والمغانم التي حققتها واستيلائها على الإدارة اللبنانية ووسائل التخويف التي مارستها لاستباحة المجتمع والدولة، بالإضافة إلى دور الجمعيات والمؤسسات والمنظمات اللبنانية والدولية في تأمين صمود المجتمع اللبناني وعمل بعضها في توزيع المساعدات العينية وفي التنمية الريفية والطبابة والإستشفاء والتعليم .

في نهاية كتابه الذي استغرق سنوات من البحث والتحليل والعمل الدؤوب، توصل الباحث إلى نتائج مهمة من بينها :

نعت القيادات التقليدية المارونية والإسلامية، بُعيد اندلاع الحرب، صيغة الميثاق الوطني، الأولون للانتقال إلى الفيدرالية أو التقسيم، والآخرين لإقامة نظام جديد يمسكون بموجبه بالسلطة. تفجرت حرب لبنان حول دور لبنان في الصراع العربي - الإسرائيلي والوجود العسكري الفلسطيني وعلاقة ذلك بهوية لبنان، وليس بسبب المسائل الاجتماعية والاقتصادية. لم يتمكن اللبنانيون، بسبب ثقل الطائفية السياسية عليهم، من صياغة استراتيجية تأخذ في الاعتبار جغرافية بلداهم السياسية، فأدى هذا الخطأ إلى تحكم الفلسطينيين بنصف لبنان حتى عام 1982، وتقاسم سورية وإسرائيل ما تبقى من نصفه الآخر، وتحول لبنان إلى ساحة للصراعات الخارجية .

إن ضعف الدولة اللبنانية من جهة، وتضخم مصالح الميليشيات الاقتصادية وهيمنتها على المجتمع اللبناني من جهة أخرى، جعل الميليشيات المختلفة تارة والمتقاطعة المصالح تارة أخرى، المرجعية السياسية والخدماتية والاجتماعية. وبسبب تعاضم نفوذها وما تحققه من نهب منظم وهيمنة سياسية، لم يعد همها تحقيق وعودها السابقة في بناء الدولة العادلة، إنما الاستمرار في الحرب. ساهم التقاتل في وسط بيروت في نشوء لامركزية تجارية واقتصادية وظهور اقتصاد طرفي، وفي هجرة جزء من رأس المال اللبناني والمؤسسات المالية والمصارف .

رغم تأثرها بالحرب، وما سببته من تغييرات حادة في علاقاتها البنوية والوظيفية وثقافتها وقيمها، بقيت الأسرة اللبنانية صامدة متماسكة وخلقة بفعل تضامنها الداخلي وتضامن الخارج معها. ساهم تغييب دور الدولة من قبل الميليشيات في حماية مجتمعها ورعايته وتوجيهه والإشراف على التنشئة وعلى التربية والتعليم والقيم، في جعل الحرب تقضي على البنى الثقافية والمعرفية التي اتسم بها لبنان سابقاً، فتأثر التعليم في مراحلها المختلفة، كذلك السلوكيات العامة ومضامين القيم الأخلاقية وتعمقت النزعة الفردية .

لم يتحول المجتمع المدني إلى قوة سياسية ضاغطة تعمل على إنهاء الحرب، لأن الميليشيات لم تترك له سوى هامش للعمل الاجتماعي والإنساني. كذلك لم يكن توافق اللبنانيين على تسوية في مدينة الطائف بفعل إرادتهم الذاتية، بقدر ما كان وليد إرادة عربية ودولية لإغلاق الملف اللبناني

يبقى أخيراً السؤال الأزلي: كيف يمكن إقامة بناء وطني عبر إلغاء نظام سياسي اجتماعي من دون تهميش الطوائف المسيحية وإثارة مخاوفها من هيمنة إسلامية؟ وكيف يمكن جعل نظام لبنان ديمقراطياً يخضع لحكم الأكثرية، من دون تسلط المسلمين عليه، بمعنى آخر: كيف يمكن جعل أبناء الطوائف الدينية ينظرون إلى أنفسهم على أنهم لبنانيون أولاً، ويرون لبنان الوطن في هويتهم ومصالحهم